من جماليات البنية الضدّية في الخطاب القرآني
. دراسة تطبيقيّة على بعض النماذج القرآنية .

د . الصديق حاجي
جامعة الإخوة منتوري . قسنطينة1 .

الملخص :

تُعَدّ البنية الضّدّية من أبرز المكوّنات الأساسيّة في أسلوب القرآن الكريم، بل هي من أكثر الظواهر اللغوية والفنية التي تجلب الانتباه أكثر من أيّة ظاهرة أخرى؛ فلا تكاد تخلو منها سورة من سوره، أو موقف من مواقفه، وهو ما يستوجب النظر في سر عناية القرآن بهذه الظاهرة التي تُعدّ مظهرا من مظاهر الإعجاز فيه.

وقد استثمر النّظمُ الكريم هذه الخاصّية الأسلوبيّة، لِما لها من فضل بياني في الدلالة، وقيمة بلاغية في الكلام، وقوة إيحائيّة في التعبير، وأثر فنّي في إبراز المعنى وتوضيحه، ورسوخه في الذهن؛ وغالبا ما تقع هذه الظاهرة بين الألفاظ والتراكيب، فتزيدها لذّةً وإثارةً، كما تقع بين المعاني والصّوَر، فتزيدها قوّةً ووُضُوحاً، وهو ما أضفى على أسلوب القرآن روعةً وجمالا، وعذوبةً ملحوظة.

واستنادا إلى ما تقدّم، جاءت هذه الدراسة، لتعالج هذا الموضوع مُعتمِدةً على المنهج الوصفي التحليلي، متجاوِزةً رصد حدود الظاهرة إلى استخلاص وظائفها الدلالية والجمالية، واستجلاء خفاياها وأسرارها ضمن السياق القرآني؛ وحسبنا أن نعرض لبعض النماذج من القرآن الكريم التي تجلّت فيها هذه الخاصّيّة الفنّية البديعة في شكلها ومضمونها.

الكلمات المفتاحيّة : الجمالية . البنية الضّدّيّة . الخطاب القرآني . التّضاد . المقابلة . الطباق.

Abstract :

Structural antonymy is considered one of the most prominent stylistic constituents of the Holy Quran and one of the artistic foundations of its discourse. It is also one of the features that establish its intricate textual relationships and components which help understand its meanings and their synonyms. The holy text makes use of this stylistic characteristic in the Arabic language because of its peculiar impact on showing, clarifying and disclosing the dimensions, semantic traits and aims of meaning. This phenomenon is based on the duality of antonymy and synonymy. This duality falls within its expressions and structures increasing their pleasantness and power of excitement. It also falls within its meanings increasing their power and clarity. This feature makes of the Quranic style even more rhetorical, more aesthetic, more eloquent, more stylish and more pleasant. Therefore, this study relies on a descriptive and analytical methodology which fits the nature of the topic and which goes beyond delimiting the phenomenon in order to depict its aesthetics and its significance and to investigate its mysteries, functions and impacts in a Quranic context. All this is achieved through scrutinizing some Quranic samples plainly characterized by their uniqueness and creativity in such an attractive and effective artistic feature.

مقدمة :

تتبوّأ البنية الضّدّية مكانة مرموقة في النّظم الكريم، وتشكّل ظاهرة لغويّة شائعة في كلام العرب، شعره ونثره، قديمه وحديثه؛ وقد وظّفها الأدباء والشعراء كثيرا في إنتاجهم الأدبي، لِما لها من أهميّة بالغة في التعبير، ودور كبير في الإقناع والتأثير، وإنتاج الدلالة وتوضيحها.

وعلى هذا جاء بها القرآن الكريم، وأودعها قانونه الثابت الذي يجب أن تؤدّيَ على أساسه الوظيفة التي وُجِدَت من أجلها، فقد جاءت على هيئة خاصة، وعلى نحْوٍ من المواءمة والمطابقة العجيبة، ما لا نجد في كلام الخلْق مثلها حسنا وجمالا، وسموّاً وروعةً وجلالاً، لتدلّ على نمط الإعجاز فيه[1]. وهو ما يتجلّى في تلك المقابلات البديعة التي يجد المتأمّل في دِلالاتها، واستخداماتها الكثيرة أغراضاً أبعد من التحسين والتجميل، فهي فنّ بلاغيّ، وطريقة مميّزة في أداء المعنى لها آثارها وقيمها البعيدة وبلاغتها الخاصّة، في تجسيد جماليات الخطاب القرآني في أحسن صورة، وأرقى بيان ، «لأن بلاغة القول وإبداعيته هو صناعته بطريقة تقابلية، تتّخذ لها أبعادا ومستويات عديدة»[2]، كما أنّها تساهم في إبراز كثير من المعاني بما فيها من ثنائيّة وتضادّ وتقابل واختلاف، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَاخْتِلَافِ اللَّيْل وَالنَّهَار وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْر بِمَا يَنْفعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَل اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاح وَالسَّحَاب الْمُسَخَّر بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْض لَآيَاتٍ لِقوْم يَعْقِلون ﴾ (البقرة : 164)، وقد جاء التضاد في هذه الآية الكريمة بين (السموات والأرض)، و(الليل والنهار)، و(الإحياء والموت) وكل هذه المتقابلات بالتضاد من التقابل اللفظي والمعنوي التي اجتمعت في النص المبارك تصرح بكماله وجلاله وعظمة قدرته عز وجل . ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف:54). لقد جاء التعبير في هذه الآية متضمنًا العديد من المتضادات بين الألفاظ والمعاني لإبراز القدرة الإلهية المتجلّية في خلق السموات والأرض، والتدابير الصادرة عنه سبحانه من تحكمه بالليل والنهار، وتسخيره للشمس والقمر والنجوم ، وكل ما يدل على عظمة قدرته . سبحانه وتعالى ، والملاحظ في معظم آيات القرآن الكريم التي تتضمّن هذا التقابل الكوني تقديم السموات على الأرض، ولعل السبب في ذلك ، يرجع إلى كونها من الدلائل المذهلة على عظمة الخالق، وقدرته الهائلة« لسعتها وعظمها ، وما فيها من الكواكب، وشمسها وقمرها، وبروجها...إلى غير ذلك من عجائبها، التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه أن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة، ويتأمّل استواءها واتّساقها، وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض»[3] .

إنّ السموات والأرض لا تشكل تقابلا لفظيا مباشرا، لأنّ العلاقة بينهما علاقة تنافر، وإنّما بما يفرزانه من مفردات معنويّة لكل من الطرفين، يتمثل بـ (فوق وتحت)، أو (أسفل وأعلى)، وهكذا يتوالى

---

3 . الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، عبد الحميد هنداوي، الدار الثقافية ، القاهرة، 2004م، ص:13 .

1 . بديع القرآن، ابن أبي الأصبع، تحقيق: حنفي محمد شرف، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ط1، 1957، ص:31.

1 . ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي ، بيروت،، ط1 ،1982، ص: 109.

التقابل الذي وظف في الآيتين الكريمتين لبيان القدرة الإلهية ، وإثبات آثارها من خلال دلائل خلق السموات والأرض، وبدليل ما ثبت له من صفة الإحياء.

وعلى ذلك المجرى يجري قوله . عزّ وجلّ . : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بيدك الخيرُ إنك على كل شيء قدير﴾ (آل عمران:26). وفي ضوء هذا الاتّساق العجيب بين الجمل المتقابلة، المتعادلة في التأليف، المنسجمة في التركيب، يتجلى الأثر الفني للبنية الضدية في هذا التعادل والانسجام بين ألفاظ التضاد (تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)، (وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)، ونحوه : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) ﴾ (الانفطار: 13 .14)، ونظرا لقلّة الدّراسات العلميّة التطبيقيّة المنوطة بهذا الجانب المضمر في القرآن الكريم، آثرنا أن نركّز الحديث على هذا الجانب الهام.

ولما كان من الأمور الأساسية التي يستند عليها البحث العلمي، هو ضبط المصطلحات، وتحديد مفاهيمها، فقد اقتضت منهجيّة البحث أن نقف وقفة يسيرة عند مفهوم بنية التضاد، وما تناقلته أهم مصنفات القدماء من أنظار نقدية في هذا السياق، وذلك لضبط ملامحها وسماتها، والكشف عن جمالياتها ودلالاتها، وإبراز دورها في السياق القرآني، وذلك من خلال طرح الأسئلة الآتية:

ما المقصود بالبنية الضدّيّة ؟ وماهي تجلّياتها الجماليّة؟ ما هو الدور الذي تؤديه في الإيقاع القرآني؟ وما مكمن المزيّة في هذه الخاصّية الأسلوبيّة؟ وما قيمة المعاني الكامنة خلفها؟ ولِمَ انتظمت هذه الظاهرة أغلب آيات القرآن الكريم، حتى أضحت تشكل حضورا بارزا ولافتا في نظمه البديع؟

أولا. مفهوم التضاد في اللغة والاصطلاح، وإشكاليّة التعدّد :

أ . المعطى اللغوي: ورد لفظ التضاد في لغة العرب بمعانٍ كثيرة، ودلالات متعدّدة، تدل في مجموعها، على المخالفة والتناظر والتعارض، فهو يعني الشيء وما يخالفه، كما يعني الشيء وما يماثله. لذلك تعدّدت معاني التضاد في اللغة، واختلفت دلالاتها، فهو المثيل والنظير والشبيه، وهو المخالف والمغالب والنِّدُّ والمنع والملء وغيرها من المعاني[1].

وقد اختلفت وجهات نظر العلماء حول مفهوم التّضادّ في اللغة، فمنهم من عدّه نوعاً من أنواع المشترك اللفظي[2]، وهو أن يكون للفظ الواحد دلالتان متضادتان، وعرّفوه بأنه « عبارة عن كلمة واحدة ذات

1. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1997، مادة: (ضدد). و معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط2، (1399هـ -1979م)، مادة : (ض د د). القاموس المحيط ، للفيروزآبادي، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،(د.ت)، ج1، مادة (ضدد)، ص:330 .

2. ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: محمد أحمد جاد الله المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي ، القاهرة، ج 1 ،ص: 387 .

معنيين متضادين»[1] مختلفين، قد يصل الخلاف بينهما إلى حدّ التناقض؛ كقولهم: "جَوْنِ" للأسود والأبيض، و"باع" بمعنى : باع واشترى[2].

وهناك من عدّ التّضاد من مفردات التقابل الذي يتمّ بين شيئين، وعرّفه كثير من اللغويّين بأنه « وجود لفظين يختلفانِ لفظًا، ويتضادَّان معنًى؛ كالقصيرِ في مقابل الطَّويل، والجميل في مقابلِ القبيح»[3]. يقول ابن السكيت (ت 244هـ) : « الضد: خلاف الشيء»[4] ، ومنه تَضَادَّ الأمران: كان أحدُهما ضِدَّ الآخر" والجمع أضداد،... ويقول ابن فارس: « والمتضادان: الشيئان لا يجوز اجتماعهما في وقت واحد، كالليل والنهار» [5].

وعليه كان «السواد ضِدُّ البياض، والموت ضِدُّ الحياة.. إذا جاء هذا ذهب ذلك »[6]. « وقد يكون الضِّدُّ جماعة، والقوم على ضِدٍّ واحِدٍ، إذا اجتمعوا عليه في الخصومة، وفي التنزيل: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (مريم: 82) »[7] .

وتأسيسا على ما تقدّم، يتّضح أنّ للتضاد في اللغة دلالات متعدّدة، منها المتقاربة، ومنها المتباينة. على اعتبار أن يكون للفظ الواحد دلالتان متضادتان، وهذا النوع من التضاد تنبّه له القدماء منذ زمن مبكّر، وكان موضع خلاف بينهم، واعتبروه خاصّيةً مميّزة للّغة العربية[8]، أمّا التضاد الذي يعنينا، فهو المفهوم الذي تمتدّ جذوره في الألوان البديعية التي أشارت إلى" الجمع بين الشيء وضده، أو المعاني المتقابلة"، وفي أدقها نعني مصطلحي" الطباق" و"المقابلة"، أو ما يُعرف بالثنائيات المتضادة الذي أخذ في النقد الحديث حيزا في الدراسة والبحث ممّا يقابل الطباق في خصوصيته إلا أن التوسّع فيه كان فلسفيا أكثر من كونه لغويا.

أمّا مفهوم البنية في اللغة فتعني نقيض الهدم، وتدل على البناء والتركيب والصياغة، وتشترك جل المعاجم اللغوية في المفهوم نفسه[9]، أما المقصود بها في الاصطلاح فتعني كل مكوّن من ظواهر متماسكة،

---

3. علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط5 ،1998 ،ص: 191 .

4. لغة تميم دراسة تاريخية وصفيّة، عبد الباقي ضاحي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1985م، ص: 596.

5. علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط5 ،1998 ،ص: 191 .

6_ إصلاح المنطق، ابن السكيت، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط4، (1375هـ -1956م)، ص: 28.

7_ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط2، (1399هـ -1979م)، مادة : (ض د د).

1. لسان العرب، لابن منظور، دار صادر ،،(د.ت)، ج1، ص:562 ،مادة : (ضدد).

2 . لسان العرب، ابن منظور، ج1، مادة : (ضدد).

3. ينظر :الأضداد، ابن الأنباري، محمد بن القاسم، (ت:327هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث الكويت. 1960م.

4. ينظر :لسان العرب، لابن منظور، ج2، ص:160، مادة :بنى . ومعجم اللغة العربية . الوافي ،. الشيخ عبد الله البستاني، مكتبة لبنان، 1910، ص: 52.

متماسكة، يتوقف كل منها على ما عداه، بمقتضى نظام منسق يحدد كل أجزائه ضمن عناصر داخلية خاضعة لقوانين النسق، والتحوّل.

ب . المعطى الاصطلاحي للتضاد، والمصطلحات المتداخلة معه :

لا يختلف التعريفُ الاصطلاحي للتضاد كثيرًا عن التعريفِ اللغوي في عمومه، ومع ذلك فقد عرف مفاهيم كثيرة، ومسمّيات عديدة في كتب النقد والبلاغة. أشهرها مفهوم يحيى بن حمزة العلوي(ت: 745ه) للتضاد، وهو أن يؤتى بالشيء وبضده في الكلام[1]. ويعني حالة من التنافر والاختلاف بين الأشياء.

ومن المسمّيات التي تطلق على التضاد[2]، نذكر: المطابقة والطباق والتطبيق والتكافؤ، والتقابل والمقابلة، والمخالفة، والمقاسمة، كما يتردّد إلى جانب ذلك مصطلح المفارقة والتنافر والثنائيات الضدّية كمفهوم يدلّ في بعض جوانبه على الخلاف والتمايز بين طرفين، ولئن اختلفت المسمّيات إلا أنّها اتّفقت في دلالتها على مفهوم التضاد الذي يعني: « الجمع بين المتضادّيْن، أي معنييْن متقابليْن في الجملة»[3].

والواقع أنّ ثمّة إشكاليّة بين هذه المصطلحات، حيث يفصح النظر في الدرس البلاغي عن أنّ بعض البلاغيين فصَلُوا بين هذه المسمّيات على الرغم من كثرة القواسم المشتركة بينها، والتي تنتظم جميعها في منظومة التناقض، لأن الجمع بين المتضادات في سياق واحد يظهر حُسْن أحدهما بإزاء الآخر، وقبح الآخر بإزاء حسن الآخر[4]، فيكون الشعور بهما في نفس المدرك أتم وأوضح، وانطلاقا من هذه الفكرة، كان من الممكن أن تنضوي تلك المسمّيات تحت مصطلح بلاغي واحد، يعطي تعريفا جامعا، يحدّد إمكاناته ووظائفه الدلالية والجمالية. وهو ما دعا أحد الدارسين إلى القول : إننا لو تأمّلنا قليلا هذه المصطلحات، نجد أنه يمكن أن يختزل الحديث عنها، في النص اللغوي، أو الأدبي في مصطلح جامع، يلم شتاتها، ويكون أكثر نجاعة في الدراسة، هذا المصطلح هو (التقابل)، فكما هو معلوم، فالتقابل « يسع التضاد ، والتناقض، والاختلاف والطباق، والتماثل، والتوازي، فالمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد... »[5].

ولعل من المفيد أن يستعين هذا البحث بمصطلح بنية التضاد، ويعمل على تعميمه على جميع طرائق التعبير التي تنتظم فيها المعاني المتقابلة أو المتضادة، التي تعمل على إيصال الأفكار والمعاني إلى المتلقي بحيوية وقوة تأثير[6].

---

1. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي، مكتبة المعارف ،الرياض- 1980، ج2، ص: 377.

2. ينظر : الثنائيات الضدية . دراسات في الشعر العربي القديم، د/ سمر الديوب، ص: 6.

3. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م، ص: 6،7.

4. بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، دار العروبة الكويت، 1981م، ص: 138.

5. الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، يوسف الحشاني، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط1، 1986، ص . ص : 40، 138، 176.

1. ينظر : في سورة اللهب، د راسة بلاغية ، د .أحمد فتحي رمضان، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد 31، سنة 1998، ص: 200.

ومن أبرز من تناول مصطلح التضاد قديما في كتاباته أبو الطيّب اللغوي الذي يقول: « والأضداد جمع ضدّ، وضدّ كلّ شيء ما نافاه، نحو: البياض والسّواد، ... والشجاعة والجبن، وليس كلّ ما خالف الشيء ضدّا له، ألا ترى أنّ القوّة والجهل مختلفان، وليسا ضدّيْن، وإنّما ضدّ القوّة الضّعف، وضدّ الجهل العلم، فالاختلاف أعمّ من التضادّ، إذ كلّ متضادّيْن مختلفيْن، وليس كلّ مختلفيْن ضدّيْن»[1].

وقد فضّل ابن الأثير (ت:622ه) تسمية هذا الفنّ بالمقابلة، لأنّ هذا ـ في نظره ـ هو الأنسب من حيث المعنى[2]. وقد حاول ابن أبي الإصبع (ت:654ه) التوفيق بين تسميات البلاغيين بتقسيمه المطابقة إلى قسمين : قسم سمّاه الطباق، وهو الذي يأتي بألفاظ الحقيقة، والقسم الثاني : يأتي بألفاظ المجاز، وسمّاه التكافؤ[3]، أمّا السيوطي (ت:911ه) فقد ذكر أنّ الطباق يُسمّى أيضا التضادّ والمقاسمة والتكافؤ[4].

وبناء على ما تقدّم، فإنّه يُنظر في النقد العربي القديم إلى التضاد على أنه مرادف للطباق والتكافؤ والمقابلة، يقول التهانوي (ت: 1191ه) في تعريفه للتضاد: « يطلق على معان منها التقابل والتنافي في الجملة، ومنها الطباق، والجمع بين معنيين متضادين» [5] ، ويقول أبو هلال العسكري عن المطابقة إنه: « « أجمع الناس أنّ المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده، ... مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار »[6] ، ومن ذلك، قول الله تعالى :﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُود ﴾ (الكهف:18)، وهذا هو طباق الإيجاب ، وهو الذي يسمى الطباق الحقيقي. وقد يكون الجمع فيه بين اسمين، نحو قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:3]، أو فعلين، نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ [النجم:34] ، أو حرفين نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيهِنَّ بِالمَعرُوفِ ﴾ [البقرة: 228].

وفي هذا لا خلاف بين معنى التضاد ومعنى الطباق، لأنّ التضاد" بالمفهوم الحديث يقابل مفهوم" الطباق " عند البلاغيين الذين استقصوا أنماطه، وبالغوا في تقسيمه وتفريعه، وهو ما يندرج ـ في البلاغة العربية ضمن المحسنات المعنوية[7]، أما المقابلة فقد اختلفت الآراء فيها، فمنهم من عدّها من أنواع الطباق،

---

2. الأضداد في كلام العرب، لأبي الطيّب، تحقيق: د/ عزّة حسن، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1383 هـ. 1963م، ج1، ص: 1.

3. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، مصر، 1995م، ج2، ص: 265.

4. ينظر: بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق : حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، القاهرة ، ط2، 1972، ص: 1 .35.

5. ينظر: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، ص: 105.

6. كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي، تصحيح: محمد وجيه غلام قادر وآخرون، طهران، 1967، ج1، ص: 874.

1. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت 395 هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبي الفضل ، إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، ط 1371،1هـ. 1952م، ص : 339.

2 . البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1984 ، ص: 196 .

وهي داخلة ضمنه[1]، ومنهم من فرّق بينهما على أساس أنّ المقابلة طباق متعدّد[2]، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة ، وعليه فالطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد[3]، يمكن إدراجه ضمن بنية التضاد ، التي تشكل حضورا بارزا ولافتا في الخطاب القرآني سواء على مستوى الشّكل : " اللفظ المفرد"، أو " التركيب اللغوي" ، أوعلى "مستوى المضمون".

من هنا كانت لها أهميتها الخاصة، وفرادتها المتميّزة، حيث يكشف أسلوبها عن وجه عظيم من أوجه الإعجاز في النظم الكريم؛ ويُسفر جمالُها عن مزيّة تُعَدّ من أبرز مزايا الشّرف والفضيلة في الكلام، وفريدة من فرائد الحُسن في الفصاحة والبلاغة، ورائعة من روائع الإبداع الفنّي في التعبير الأدبي، وكل ما ينعكس على الأسلوب من قيم جمالية، وآثار بلاغيّة، ولمسات بيانيّة، ترتقي ببلاغة الكلام إلى أرقى مستويات الأداء الفنّي، وأبدع أساليب الجمال التعبيري عن المعنى، بكل ما تحمل في طياتها من البلاغة والتشويق والجاذبية والتأثير.

وعلى هذا فهي تُعدّ من الأساليب البارزة التي يجيء الاعتماد عليها عن قصد، وفي مواضع كثيرة من القرآن الكريم، لتحقيق غايات عظيمة، تتمثل في استظهار دلالاته ومقاصده، وكل ما يتصل بنظمه البديع، واستخداماته البلاغية الفائقة؛ وهو أمرٌ استأثر باهتمام الباحثين عن مواطن البلاغة والجمال في كيانها التعبيري، للكشف عن أعمق دلالتها في سياقها الخطابي، وهو ما يؤكّد أنها لم تعد مجرّد ظاهرة أسلوبية فنية ، تستند إلى اقتران المتضادات، اقترانا جدليا، أو مجرّد محسّن بديعي، يتّصف بجماليات مثيرة لتحقيق غرض معيّن، بل أضحت وسيلة من أبرز وسائل الانسجام بين الجمل، لتتجاوز دلالة اللّفظ إلى المعاني الثاوية في التراكيب والموقف والسياق، وهو ما تؤكده اللسانيات الحديثة، التي ترى أنّ العمود الفقري للفنّ والإبداع، هو الانسجام الذي يتجاوز دائرة الجملة الواحدة إلى بنية النص بأسره، لتعكس وظيفتها النهائية التي تقوم على الصراع بين الذات والموضوع، والحياة والموت، والخير والشرّ ؛ وكل ما هو انعكاس لمظاهر الكون، وصراع النفس البشريّة المتقلّبة في هذا الوجود، ولكونها تعكس الرّؤية المزدوجة في الحياة، فإنّها خير ما يمثّل الأدب، كأداة كشف للجمال والحقائق معا.

من هنا وجب النظر إلى أسلوب التضاد برؤية وتصوّرات جديدة، على عكس ما درجت عليه الدراسات القديمة في تناولها لهذه الإشكالية التي لم تكن في مجملها على درجة مهمة من الشمولية والعمق والتفصيل، بل كانت إشارات ونظرة شكلية، لم تتعدّ إطار الجملة والعبارة إلى النص، والغوص في بنيته وتفاعلاته الداخليّة.

---

3 . ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ج1، ص: 353.

4_ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لأبي الحسن بن رشيق القيرواني، تح : د.محمد قرقزان -دار المعرفة -بيروت -لبنان، ج1، ص: 590.

5_ البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، د.فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط1، 1407 هـ. 1987، عمان – الأردن، ص: 278.

فهي عند المحدثين جزء أصيل من التعبير، لا يمكن الاستغناء عنها، ومن ثمّة فهي جديرة بالتأمّل والنظر « لأنّ الحياة بكلّ عناصرها هي جزء من هذا اللّون، أو هذا اللّون جزء من الحياة ذاتها»[1] ، وهو أكبر ممّا وصفه المؤلّفون. وإذا تأمّلنا ما حولنا نجده معتمدا على أضداد، تشكّل ثنائيات متقابلة قائم عليها الكون بأّسره، ومستمرّ بها.

ومادام التّضاد سمة الوجود، فهو أساس التقابل في اللغة، وسرّ حسنها وجمالها، لاعتبارات تكشف عنها دلالات التعارض بين المعنى الظاهر، والمعنى الخفي الغائص في أعماق النص، وفضاءاته البعيدة، « إذ يتمخّض الخطاب الأدبي عن أغراض أعمق وأدقّ من هذه التي اهْتَدى إليها البلاغيون، وذلك باستشفاف العطاء الفنّي لنسق التراكيب داخل العمل، ومن خلال بِنْيَته الخاصة»[2].

أنواع التضاد (أوأشكال البنية الضدية و مكوناتها البنائية):

يعدّ " التّضاد " أحد المفاهيم النقديّة الحديثة، فقد ظهر في عالم النقد على المستويين النظري والتطبيقي، خاصة بعد ظهور الطروحات البنيوية، وما فيها من موضوعات لسانية، حيث ظهرت أكثر من مدرسة تبنت هذه الطروحات، كمدرسة (براغ)، ومدرسة جنيف السويسرية التي يتزعمها" دي سوسير"(F .de saussure) ، وغيرها من المدارس التي تبنت مفهوم" التضاد " في طروحاتها بوصفه المحور الأساس الذي تقوم عليه البحوث والدراسات اللسانية ؛ فقد عدوا هذا المفهوم عنصراً أدبياً وجمالياً، يشكل مقوما أساسيا في بنية الخطاب ،ومن خلاله يتشكل المعنى على مستوى التحليل[3]. « إذ تنشأ الثنائيات الضدية بين الوحدات الخطابية من خلال تعاكس البنى المشكلة للنص على مستوى الدال اللغوي (المرئي)، ومن خلاله يظهر النوع الأول من أنواع الثنائيات الضدية ما يسمى (التضاد الحسي أو الصريح) ، أو بتعبير البلاغيين (اللفظي) بأشكاله البنائية (الحقيقة والمجاز) باعتبار الطرفين (الإيجاب والسلب) ، أو باعتبار التركيب الجملي (بين اسمين أو فعلين أو حرفين) ، وهذا الشكل متحقق في الخطاب بوصفه دالاً حيث تنشأ الأشكال الضدية بين الكلمات والجمل، أما النوع الثاني فيمكن تحديده من خلال إعطاء الخطاب اللغوي لطرف واحد من أطراف التضاد مما يتطلب منا البحث عن الطرف الثاني من خلال السياق التركيبي والدلالي، وهو ما يسمّى (بالتضاد المعنوي الخفي)، وهو يقابل (التضاد المعنوي) في البلاغة العربية »[4] .

وبالتأمل فيما سبق نستنتج أنّ البنية الضدّية دائمة الحضور في التركيب التضادي، الذي يأخذ عدة أشكال وحالات، فقد يكون التضاد ظاهرا صريحا في النص، كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ

---

1 . البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد . علم البديع، بكري شيخ أمين، ص: 64.

2 . التقديم والتأخير ومباحث التركيب بين البلاغة والأسلوبية، مختار عطية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، 2005، ص: 112، 113 ..

3. ينظر: نظرية البنائية في النقاد الأدبي، د.صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1987، ص: 24، 45، 108.

1. ينظر: الثنائيات الضدية في سورة الرعد، م.د .مازن موفق صديق الخيرو، بحث منشور بمجلة آداب الرافدين، العدد 57، السنة 1431هـ . 2010م، ص: 120 .

الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (الرعد:10)، فهنا ثلاث طباقات (أسر وجهر)، (ومستخف وسارب)، و(الليل والنهار).

كما قد يكون باطنا خفيّا يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير، وهذا الباب كما يصفه ابن الأثير : باب عجيب يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر[1] . من ذلك قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح: 25]، أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم، وإصرارهم على كفرهم، ومخالفتهم رسولهم، فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق، فالغرق يتطلب وجود الماء، والماء ضد النار، فصار من هذا ما يعرف بالطباق الخفي نتيجة التبحر في المعنى. ونحوه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ:50]، وبيان (التقابل) هنا من جهة المعنى: أن النفس كلُّ ما هو عليها، وضارٌّ لها فهو بسببها ومنها؛ لأنها الأمارة بالسوء، وكلُّ ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها. ولو كان (التقابل) هنا من جهة اللفظ، لكان التقدير: وإن اهتديت فإنما أهتدي لها. ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:179]؛ لأن معنى (القصاص): القتل، فصار القتل سبب الحياة. وقد عُرِّف القصاص ونُكِّر الحياةُ ، ليدل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلُغه الوصفُ ، وذلك لأن العلمَ به يردَعُ القاتلَ عن القتل، فيتسبَّب لحياةِ نفسَيْن، ولأنهم كانوا يقتُلون غيرَ القاتل، والجماعةَ بالواحد ، فتثورُ الفتنةُ بينهم، فإذا اقتُصَّ من القاتل سلِم الباقون ، فيكون ذلك سبباً لحياتهم .

واستنادا إلى هذه الحقيقة، لا يمكن اعتبار البنية الضدّية مجرّد محسّن بديعي، أو حلية زائدة ، بل هي جزء أصيل من النسيج الفني للعمل الأدبي[2]، وربّما كانت هذه الأداة أهم أدوات التعبير في مجالها، حيث تدخل في تكوين بنية النص جنبا إلى جنب مع معطيات ومفاهيم معاصرة كالثنائيات الضدية، والمفارقة والتقابل والاختلاف، وكل ما يُفهم من منظومة التناقض والتضاد[3]، وما تقوم به من ربط بين المتناقضين، وتفاعل بينهما، وتناسب بين المعاني، من خلال ما تمارسه من عملية شدّ وجذب على نفسية المتلقي، ذلك أنّ الربط بين الأشياء المتنافرة يثير العواطف، ويساعد على التذكّر واستحضار المعاني، وتحفيز المحرّكات الذهنية، وهو ما يضفي على النص حيوية وجمالية وفاعلية تغدو « أساسية يتلقاها القارئ عبر كسر السياق، والخروج عليه»[4] ، وهو ما يعني أنّ استجابة المتلقّي تكون أكثر ميلا للمعاني المتضادة، وأكثر دعوة إلى التأمّل.

يقول الزركشي : « اعلم أنّ في تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمّل»[5] ، لأنّ بين المعنى وضده علاقة تمثل نوعا من المناسبة والانسجام، تسوّغ الجمع بينهما، ولا تعني الانفصال والتباعد، وإنْ ظهَرا

---

2 . ينظر :المثل السائر ، ابن الأثير، ج2، ص: 301.

1 . ينظر: لغة التضاد في شعر أمل دنقل، عاصم محمد أمين، ص: 53 .

2 . ينظر: الشعر ولغة التضاد . الرؤية ، الميدان والتطبيق ،. مختار أبو غالي، حوليات ، تصدر عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية 15، السنة 1415 هـ . 1995م، ص : 8. 13.

3 . جماليات الأسلوب والتلقّي، موسى ربابعة، دار جرير، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص: 148.

4 . البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزكشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1425 هـ . 2004م، ج3، ص: 283.

متناقضين متباعدين، ذلك أنّ المعنى يستدعي ضدّه، كما أنّ الشيء يُعرَف بضدّه، بل كلّما كانت الضدّية في الكلام بدعوى من المعنى، لا تطفّلا عليه، كانت أنجح في أداء دورها المنوط بها في توكيد وتقرير المعاني ، وتثبيتها في النفوس، وتقريبها من الأذهان.

ومن ثم يشكل التضاد تناسبا بين المعاني، بل يزيد الكلام حسنا وجمالا « ويفجّر المعاني، ويفصح عنها، فتنقاد للفهم، وتستقرّ بالذهن »[1]، ولعلّ في هذا الربط والتكامل والتفاعل ظهور القيمة الجماليّة التي « تنجم عن الجمع بين الضدين في بنية واحدة، وهذا ما يؤدي إلى تعميق البنية الفكريّة للنّص بالحركة الجدلية بين الثنائيات الضدية»[2] ، التي كثيرا ما يعتمد القرآن عليها، سواء بين المفردات أو التراكيب، أو بين المواقف، أو النماذج الإنسانية، فيرسم المشاهد المتضادة في القصص، وفي الأمثال، ومن روائع ذلك التقابل بين مصير الكافرين يوم القيامة، وبين مصير المؤمنين المتقين ، وهو ما يتضح في قوله تعالى في آخر سورة الزمر : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:71 . 72].

ثم يقول في شأن المتقين : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر: 73 . 74]. وواضح هنا أنّ جمال الصورة يكمن في صميم التضاد الضمني الذي انطوى عليه التركيب وقد انتظم هذا الوجه من الفصاحة أعلاها ومن البلاغة أشرفها. ونحوه ما نتلمّسه من تقابل بديع، وتناسق فني فريد بين جرس الألفاظ في العبارة الواحدة، وبين الجوّ العام للسياق، الذي تعكسه الآيتين المواليتين، وذلك عندما يصوّر القرآن مشهدا مميّزا من مشاهد يوم القيامة عند الحشر، وانتشار الصحف، فمنهم من يأتي كتابه بيمينه، فيقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة :19 .20]، ومنهم من ينال كتابه بشماله ، فيقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه﴾ [الحاقة :25 .26]، فالآيتان تنقلان صورتين مختلفتين متضادتين ، الأولى تنقل صورة شخص فرح مسرور، وتصوّر ما هو عليه من سعادة ورضى، والأخرى تنقل صورة شخص نادم متحسّر، وتصوّر ما هو عليه من تعاسة وندم، وليس بخافٍ أن القارئ ، وهو يقرأ الآيتين يشعر من خلال جرس ألفاظهما بذلك كله، وهذا ما يُعرَف بـ (إيقاع التقابل)

5 . ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين، محمد الواسطي، دراسة بلاغية نقدية، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، ط1، 2003، ص: 236 .

1 . مصطلح الثنائيات الضدية، سمير الديوب، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 1، مجلد: 41، سبتمبر 2012، ص: 119 .

[1] ، وهذا النوع من الإيقاع يقوم على فكرة التقابل بين الألفاظ والمعاني، وتضاد الدوال في مدلولاتها، وتفاعلها مع الحركة التعبيرية ليكسبها نموا حيويا يسري بفعل نظام العلاقات اللغوية السياقية، والعلاقات الدلالية الإيحائية.

وهكذا يستغلّ التضاد أكثر ما يستغلّ في السياقات الهادفة إلى الكشف عن حقائق الأشياء، والتنبيه إليها، « فكلّ نسق يقف مقابل نسق آخر تضادا وتشاكلا لينتهي إلى التآلف والتكامل والتناغم في وحدة منسجمة» [2]. على اعتبار أنّ الضدية لا تكون إلا بانعقاد الصلة التركيبية بين طرفيْ التضاد، والربط والتفاعل بينهما، « لأنّ كلا الطرفين في المفارقة يلقي بظلاله على الآخر، فيبرز ملامحه، ويزيدها وضوحا وجلاء» [3]. يقول ابن قتيبة : « لو كان كلّ فنّ من العلوم شيئا واحدا، لم يكن علم ولا متعلّم، ولا خفيّ ولا جليّ؛ لأنّ فضائل الأشياء تُعرَف بأضدادها. فالخير يُعرَف بالشرّ، والنفع بالضرّ، والحلو بالمرّ، والصغير بالكبير، والباطن بالظاهر »[4]. فحسن الخير لا يبدو إلا بقبح الشرّ، وكذا الأمر في جمال النهار لا يبدو إلا بوحشة الظلام في الليل، و ينسحب الأمر على جمال الحق، وقبح الباطل، وهكذا ...

وربّما كانت تلك العلاقة أقرب إلى الذّهن من أيّ علاقة أخرى، كونها « من الأمور الفطريّة المركوزة في الطباع التي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، إذ الضدّ أقرب حضورا بالبال عند ذكر ضده»[5]. وهو ما يولّد لذّة وشوقا لدى المتلقّي من تداعي التقابل، فيتوجه التنبّه إلى المعاني التي يؤثر بعضها في بعض تأثيرا كبيرا، إذ بمجرّد ذكرِ معنىً من المعاني يُستدعى المعنى المضاد إلى الذهن[6].

وحتى تكون الصورة أوضح نأخذ التقابل بين (السماوات والأرض) في قوله تعالى : ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (النبأ : 37)، فهاتان اللفظتان كثيرا ما تكرّرت في القرآن الكريم، وكثيرا ما جاءتا متجاورتين، ليحس المؤمن بالصلة بين المبدع وما أبدع، فيزيد شعوره بعظمة ما يرى وما يحسّ، وهي لفتة أصيلة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن، ونظرة الإسلام للكون والحياة، من خلال السماوات والأرض، لأنّ فيهما حدثت وتحدث وستحدث الأمور العظيمة، من خلق وولادة وحياة، وتفكير وتدبير، ثم انتهاء حياة. ففي السماوات والأرض وُجِدَ الإنسان، وفيهما يحيا ثم يفنى، ثمّ يُبعَث من جديد. إنّ وجودَ هاتين الكلمتين متجاورتان يعكس أهميّة هذا التجاور، ويشي بأهميتهما على المستوى النفسي والفكري، إذ بإيجادهما إيجاد العالم، وبانتهائهما انتهاء وزوال لهذا العالم، وهو أعظم مقصد يسوق النفس إليه، وبين هاتين الكلمتين يوجد طباق معنوي، يتمثل في العلوّ والانخفاض، فالأرضُ تقابلها السماء، فالسّماء في السّموّ، والأرض دون ذلك. وصورة خلق السموات والأرض، على ما هما عليه من

---

1 . ينظر الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، ابتسام أحمد حمدان دار القلم العربي سوريا ، حلب، ط1 - 1418هـ/1997م ، ص: 143 .

2. الكلمة دراسة لغوية معجمية، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، دط، 2011، ص: 136.

3. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق : أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، دط، دت، ص: 87.

4 . ينظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد داود، دار غريب، القاهرة، 2001، ص: 193.

1 . ينظر: الصبغ البديعي في اللغة العربية، أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1388 هـ . 1969م، ص: 471 .

بديع الصنع والإحكام، وخلق الظلمات والنور لدليل على وحدانيته – سبحانه - وأحقيّته بالحمد والثناء ، وآية ذلك قوله تعالى :﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور ثمَّ الَّذِينَ كَفرُوا برَبّهِمْ يَعْدِلون﴾ (الأنعام: 1)

وعلى هذا تعدّ البنية الضدّية أداة فاعلة في بناء النصوص، ولمسة بارعة من لمسات البيان، إذْ بها « تبرز الأشياء ، وتتأكّد المعاني ، ونجد لها إلى الوجدان سبيلا، فتثبت ويقرّ قرارها »[1] ، فنحن لا نعرف الشيء بدقّة وعمق إلا من خلال معرفة نقيضه، تقول سمر الدّيّوب لا « تظهر الفضيلة إلا باقترانها بالضدّ، ولا معنى للكرم من غير اقترانه بالضد، فلا بدّ لكلّ شيء من ضدّ يميّزه ويوضّحه»[2]، فالضدّ يظهر حسنه الضدّ ، وبضدّها تتميّز الأشياء، وللّه درّ الشاعر حين أشار إلى ذلك بقوله[3]:

فالوجهُ مِثْل الصُّبْحِ مُنْبِلجٌ *** والشَّعْر مِثلُ الليلِ مُسْوَدُ

ضِدّانِ لمّا استَجمَعا حَسُنا *** والضِدّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِدُّ

وتلك هي الحقيقة التي أسفرت عنها الدراسات والمناهج الغربية الحديثة، التي تنظر إلى أنّ العالم مجموعة من الثنائيات المتشابكة والمتقابلة، وأنّ اللغة تعبير عن الحياة، وانعكاس لصورة الواقع المتناقض المتصارع، وهي الفكرة التي انطلقت منها اللسانيات الحديثة في نظرتها إلى اللغة على أنها نظام من الاختلافات[4]، بل نظام « من الوحدات، يتواصل بعضها ببعض على شكل عجيب، وتتقابل فيها بُناها في المستوى الواحد، التقابل الذي لولاه لما كانت هناك دلالة»[5]. وأصل هذه الفكرة ، هي في الواقع الواقع فكرة فلسفيّة . قبل أن تكون لغوية . متأصّلة في النّفس البشريّة، ومتّصلة بها أشدّ الاتّصال، فالطبيعة البشرية قائمة على المفارقات والمتناقضات بشكل دائم ، لأنّ الناس بطبيعتهم مختلفون، ومظاهر الحياة تكمن في وجود هذا الضد. الذي لا يستثني لغتنا المعبّرة عن ذلك كلّه.

لذا تبدو الحاجة قائمة إلى تحليل النصوص وتفسيرها من منظار ما استجدّ في الدرس البلاغي الحديث، وما حملته المناهج النصّية الحديثة في مجال النقد واللسانيات وعلوم اللغة والدلالة وغيرها، لتوسيع مجال دراسة البنية الضدّيّة في الخطاب القرآني العظيم، وما تؤديه في تأطير وتعزيز القيم المعنويّة والدلالية، ولن يتحقق ذلك إلا من باب التأمّل فيه، والالتذاذ بما يثري الفِكر والشعور، ويقف بالمتلقي على روافد الجمال والذّوق في تلقّي المعاني[6]، والاقتراب من أسرار النصّ ذوقاً وعلماً وفنّاً وجمالاً، « فقد

2 . من بلاغة النظم القرآني ،بسيوني عبد الفتاح فيود ،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1، 1431 هـ . 2010م، ص : 330.

1 . الثنائيات الضدّيّة بحث في المصطلح ودلالاته، سمر الدّيّوب، سلسلة مصطلحات معاصرة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة الإسلامية المقدمة، ط1، 1439 هـ . 2017 ، ص: 10.

2 . القصيدة اليتيمة، لدوقلة المنبجي، ينظر الموقع : http://www.alriyadh.com/1032492

3 . ينظر : لغة التضاد في شعر أمل دنقل، عاصم محمد أمين، ص: 43 .

4 . مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، دار القصبة للنشر، 2000، ص: 16. .

5 . ينظر :(هُنّ عوادي يوسف) لأبي تمام الطائي - دراسة بلاغية في متنها الشعري، أحمد فتحي رمضان، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد 22 ، 1991، ص: 237.

نكون عرفنا البلاغة علماً، وثقفناها صناعةً ومنطقاً، غير أننا ما زلنا في أشدّ الحاجة إلى أن نجتليها ذوقا أصيلاً، وحسّاً مرهفاً في آيات الفصاحة العُليا، والبيان المُعجز»[1] .

والحقيقة التي ينبغي أن نشير إليها هي أنّ أسلوب التضاد في الخطاب القرآني، تقتضيه دلالته الجليلة، كما تتطلّبه مواقفه النبيلة، ليحدث الأثر المطلوب في النفس الإنسانية، فيستجيب لما تحدثه بنية التضاد من عظيم أمر في التراكيب القرآنيّة بأجمعها، ولعلّ هذا كلّه ما يفسّر كثرة وجودها في هذا الكتاب الكريم الذي يعدّ أرفع الكتب مكانة، وأغناها علما، وأسماها بلاغة وبيانا.

البنية الضدية في ميزان النقد بين القدماء والمحدثين :

إنّ المتتبّع لهذه الظاهرة البلاغية في ثنايا الدراسات اللغوية، يلمس بوضوح أنها أضحت وسيلة تعبيرية من الطراز الأوّل، سادت الأدب العربي القديم، وأصبحت اليوم سمة مميّزة في الأدب الحديث، بل إحدى قوانينه، بوصفها انعكاسا وترجمة للواقع المتناقض، وقد أخذت هذه الظاهرة البديعية نوعا من القبول، ثمّ الإعجاب والاستحسان، حتى استقرّت علامة مميّزة لتجلّيات الحداثة [2].

وانطلاقا من استقرائنا لإشكالية التضاد ـ نلاحظ أنه حدث نوع من التحوّل في النظرة للبنية الضدية مع بعض كتب علوم القرآن، وكتب التفسير، حيث نجد بدر الدين الزركشي يقدم وجهة نظر تستحق الإشارة، في كتابه (البرهان في علوم القرآن) ، حين جعل المقابلة علما من علوم القرآن، وبالرغم من اقتصاره على تعريفها، وذكر أقسامها سيرا على عادة البلاغيين، إلا أنه أظهر وعيا بأهمية المقابلة في فهم النص القرآني خاصة عندما أورد نصا لأبي الفضل يوسف بن محمد النحوي، يعتبر فيه « أنّ القرآن كلّه وارد عليها بظهور نُكَتِه الحكمية العلمية، من الكائنات والزمانيات، والوسائط الروحانيات، والأوائل الإلهيات، حيث_اتّحدت من حيث تعدّدت، واتّصلت من حيث انفصلت... »[3]، ويُقصد بذلك تلك الثنائيات_الضدية التي يقوم عليها الكون بأسره، الواقعة أمام الأنظار في مشاهد الكون، وصفات الخلائق على اختلاف ألوانها وأشكالها، والمبرزة دائما قطبين تتراوح بينهما الأشياء، أو تنشأ عنهما قضايا الوجود، وهو ما يؤكد من ناحية أخرى أنّ « التضاد نوع من التوازن لاستمرار الكون والكائنات، المادي منها والمعنوي»[4]، فكلّ « نقطة هي حزمة من المعاني ... تشعّ باتّجاهات متنوّعة متعاكسة»[5]، وكما أنّ الصورة تستدعي نظيرها، فإنها في المقابل تستدعي نقيضها ، فينشأ التباين والاختلاف الذي يشير إليه المعنى بين المتضادات من الأشياء، فهو سجلّ المعاني الجمّة في السياق، ومظهر الإيجاز اللفظي في النّسق، والتفصيل المعنويّ في التعبير، ودليل من دلائل الفصاحة والبلاغة في الكلام.

وقد أكّد عبد القاهر الجرجاني أهمية التضاد، وأثره في تشكيل الصورة الفنية في قوله : « وهل تشك في أنه يعملُ عملَ السحرِ في تأليفِ المتباينيْن، حتى يختصرَ لك بُعْد ما بين المشرق والمغرب، ويُريكَ التئامَ

---

1 ـ الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف بمصر، 1971، ص: 221.

2. بناء الأسلوب في شعر الحداثة، التكوين البديعي، محمد عبد المطلب، 1988م، ص: 90.

3 ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (د.ط)، (د.ت)، ج 458/3.

1 ـ البديع في شعر شوقي، د .منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2 ، 1992، ص: 251 .

2 ـ في الشعرية، ص : 49.

عين الأضداد، فيأتيكَ بالحياة والموت مجمُوعيْن، والماء والنار مجتمعيْن، كما يقالُ في الممدوح هو حياةٌ لأوليائه/ موتٌ لأعدائه، ويجعل الشيء من جهةٍ ماءً، ومن جهةٍ أخرى نارًا»[1]، فكان الجمع بين الضدين من الأمور المثيرة للغرابة « ولعلّ الحسن إنما جاء من هذه الناحية، لأنّ الشأن في الضديْنِ ألا يجمعهما مكان، ولهذا كان من الغرابة الغريبة، والندرة النادرة، والعجَب العاجب أن يضمّها قَرَن »[2]، وهكذا تتعانق الصّوَر في هذه الظاهرة البلاغية، وتنتظم فيها المفردات في أجمل وأبهى صورة، وهي التي تُكسب الخطاب جمالا وقوّة وعمقا وتفرّدا وإبداعا، ذلك أنّ موضع الاستحسان، ومكان الاستظراف، والمثير للدفين من الارتياح، أنك ترى بها الشيئِنِ مثليْنِ متباينيْنِ، ومؤتلفيْنِ مختلفيْنِ[3].

ومن هنا تتحقق القيمة الأساسية للتضاد من خلال تبين« حالة الضد بالمثول إزاء ضدّه، فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا»[4].

وأمّا المطابقة التي عمودها التضاد « فلها شعب خفية ، وفيها مكامن تغض، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب، والذهن اللطيف»[5]. فهي كثيرا ما تحتاج إلى كدِّ ذهن، وتأمّلٍ عميق للوصول إلى التعارض، وكشف دلالاته، الذي لا يأتي فقط من خلال الكلمات المثيرة والمتضادة، بل قد يكون فيه المعنى الخفي في تضاد مع المعنى الظاهري، وهو ما يُعرَف بتضاد الموقف، أو الحدث، أو السياق، وما ينضوي تحته من الاستخدامات البلاغية التي يُعدّ التضاد واحدا من أبرزها. وقد حاول أحمد مطلوب أن يبيّن أنّ فنون البديع « ليست حِلْية ... وإنّما هي رُكن مهم في العبارة لا يُستِغنى عنها، ولولا ذلك لم يحفل بها القرآن الكريم، والحديث الشريف، ولم يزدهر بها كلام العرب البليغ»[6]، ولم يكتف بالحديث عن البديع بصفة عامّة، بل تناول المطابقة بالتحديد، في مؤلف آخر، وذلك لدورها المحوري في بناء النصوص، يقول : « والمطابقة من مقوّمات التعبير، لأنها تعتمد على الأضداد، والمتناقضات، ولذلك فهي ليست محسّنا، وإنّما هي وسيلة من وسائل التعبير»[7]، واستنادا إلى ذلك، فقد حاول أن يبيّن أهداف ورود البديع في القرآن الكريم، ولا سيما أسلوب التضاد الذي يهمنا في هذه الدراسة، بالقول : «إنّ التأمّل في كلام الله، والوقوف على معانيه السامية، وتذوّق ألفاظه الموحية، ومعانيه المؤثرة، يؤكّد أنّ البديع لم يكن حلية، أو محسّنا عرضيّا، وإنّما هو أسلوب يهدف إلى أمور منها:

الأوّل : إبراز المعنى بأجلى صورة وأوضحها.

الثاني : جمال التعبير ، واتّساقه البديع.

---

3 . أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة المدني، مصر، ط1، 1991، ص:32.

4 . الأدب والبلاغة، إبراهيم علي أبو الخشب، مطبعة المعرفة، القاهرة، 1959، (د.ط)، ص:202 .

5 . أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص :109 .

1 . منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تقديم :محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، 1981 ، ص : 45 .

2. الوساطة بين المتنبي وخصومه :القاضي علي عبد العزيز الجرجاني، تحقيق :محمد أبوالفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، القاهرة- د.ت، ص: 44.

3 . بحوث بلاغية، أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي، بغداد، 1996، ص: 179.

4 . البلاغة العربية، المعاني والبيان والبديع، أحمد مطلوب، معهد الإنماء العربي، بغداد، ط2، 1980، ص: 288.

الثالث : روعة التأثير، وفعله في النفوس»[1] ، لأنّ هذا النوع من الكلام، كما يقول أبو هلال العسكري « إذا سلم من التكلّف، وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة »[2]، ومنه تظهر بلاغته في سياق الكلام، والربط بين أجزائه في تناغم وانسجام، وعلى هذا كان لهذا النوع من الأسلوب دوره في تحلية العبارة وتنميقها بوَشْيٍ يزيدها بهاءً، ووشاح يزيدها رونقا؛ فتزدادُ حُسْنًا إلى حسنها، فبنية التضادّ تتجلّى بين الألفاظ والمعاني، والأفكار والصور؛ لتبدأ بالطباق، وتنطلق إلى المقابلة، وتتقدّم إلى الاستعارة العناديّة، والاستعارة الوفاقيّة تحقيقاً لغايات بلاغية، وقيم فكرية، ومقاصد جمالية ودلالية، إذ « يستجمع الكلام بها أسباب الاتّصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النفسيّة، فيجري في النفس مجرى الإرادة، ويذهب مذهب العاطفة»[3].

والقارئ المتأمّل في القرآن الكريم يجد أن الضدّية ليس قانونا لغويا صرفا، بل سنة الله في خلقه، وعلى هذا أصبح التضاد في السياق القرآني عُرفا لغويّا سائدا، فلا يرد لفظ النار إلا وقوبل بالجنّة، ولا السماء إلا بالأرض، ولا الليل إلا بالنهار، ولا الشمس إلا بالقمر، ولو تأمّلت ذلك كله لذهلت بكثرة التقابل والتضاد في السياق القرآني، وهو ما يستدلّ به ذوُو الألباب على عظيم قدرة الرحمان، ولن نستطرد في ذكر كلامهم، فحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق، فقد ذكر كمال عبد العزيز إبراهيم أنّ فكرة دراسة هذه الظاهرة في القرآن الكريم ما انفكّت : « تلحّ عليّ حين أتأمّل الكون من حولي، فأجدها تنتظم الوجود بأسره أيضا.

فالأرضُ تقابلها السماء، والليل يقابله النهار، وكذلك يتقابل الأبيض والأسود، والخير والشرّ، والذكر والأنثى، والصدق والكذب، ويمتدّ هذا التّقابل مع امتداد البصر، وجولان الفكر في كلّ شيء، وكنت أربط بين ظاهرة التقابل في الكون، وظاهرة التقابل في الأسلوب القرآني، فيروعُني صدق العلي القدير، وهو يقول: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: 49)، وأتصوّر أنّ هذه الثنائية الضدّية التي تنتظم العالم كلّه، إنّما هي دليل على تفرّد الله ، ووحدانيته، وتنزّهه، عن الشريك والضدّ والنظير، ولا عجب فالقرآن كتاب الكون المفتوح »[4]. وأنّ البحث والنظر فيه شرف، لا يدانيه شرف.

إنّ رؤية الأضداد، والشعور بها، ووصفها في إطار المفارقة تخلق توازنا في الحياة والوجود، فهي من حيث طبيعتها نظرة فلسفيّة للحياة، قبل أن تكون أسلوبا بلاغيّا، ندرك بها سرّ وجود التنافرات والتناقضات التي هي جزء من بنية الوجود نفسه[5].

---

1 . البلاغة العربية، المعاني والبيان والبديع، أحمد مطلوب، ص: 179.

2 . الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار الكتب العصرية، بيروت، 1406 هـ . 1986م، ص: 267.

3 . تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط4 ، 1394هـ . 1974م ، ج4 ،ص: 220.

1 . أسلوب المقابلة في القران الكريم دراسة فنية بلاغية مقارنة ، كمال عبد العزيز إبراهيم، الدار الثقافية للنشر، ص: 4.

2 . ينظر: الزمن الوجودي، عبد الرحمن بدوي، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ط2، ص : 24 . 26 .

وقد أدرك أبو حيان التوحيدي هذا المعنى، فأكّد أنّ المعاني والأشكال في الحياة تتشاكل وتتلاقى مهما اختلفت منابعها، وتنوّعت أحوالها، حيث رأى في اجتماع الحسّ والعقل في الإنسان دليلا على اجتماع المتناقضات فيه، فالإنسان تركيبة متناقضة[1]، وتلك خصيصة كامنة في أغوار النفس البشرية التي يتأكّد لنا من المنظور القرآني أنها موجودة في التركيبة الآدميّة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)، والنتيجة التي نستخلصها في ضوء ما أوحت لنا به إفرازات النصوص المتعدّدة ضمن التراث أنّ الحياة « غريزة واضحة الأثر في حركاتنا وسكناتنا، والموت غريزة ماثلة أمام أعيننا، والسّواد والبياض موجودان جنبا إلى جنب في الحياة، ... ففي داخل النفس البشرية يلتقي طرفا هذه الثنائية التي انشغل بها الفكرُ الإنساني كثيرا عبر اختلاف عصوره، وبدَت الحياةُ صعبةَ التفسير بمعزل عن فكرة الأضداد والثنائيات، وبدت قائمة في كثيرٍ من جوانبها على أضداد وثنائيات»[2].

وهكذا شكّل أسلوب التضاد وِشَاحا يزدان به الخطاب القرآني، كما يزدان به الأدب بشكل عام، والشعر بشكل خاص، حتى لم تسلم قصيدة من قصائد الشعراء الكبار إلا وضربت بطرف من أطراف التضاد، فأغلب القصائد الشهيرة في الشعر العربي إنّما تعتمد في شعريّتها، وبناء نسيجها على بنية التضاد أو المفارقة، سواء أكانت مفارقتها لفظية أم سياقيّة ، فيؤثر الجمعُ بين المتضادَّيْن في وجدان المتلقي، فيزداد الكلام حسنا، وتزداد النفس لذّةً، كما يزداد التأثير عمقا « ومتى جاء الجمعُ بين ضدّينِ فلِمَعْنى آخر لقصْدِ البيان؛ فإنّ بضدّها تتبيّنُ الأشياءُ، ولمّا تجدُ النّفسُ في ذكرهما مجموعَيْنِ من اللّذّة؛ لأنّ اللّذّة في الْتِقاء الضّدّيْنِ ... فتتمثّل النّفسُ ذلك في القوْل، والاعتدال في اجتماعهما، فتَسْتَطِيبُه»[3].

من بلاغة االبنية الضدية، وجمالياتها في ضوء الشواهد القرآنية:

تعدّ بنية التضاد من أكثر علاقات المعنى شيوعا وانتشارا في القرآن الكريم، كما هي شائعة في الإبداع الأدبيّ، وخاصّة في الشعر الذي يحتوي في جوهره على عوامل التّضاد، ممّا يؤدّي إلى المفاجأة والدّهشة والتوتّر، وهنا تظهر أهمية الضدّ، ودوره في التعبير، وتحقيق شعريّة النّص، وتفعيل جمالياته، فيفيد معنى الموازنة والتأمّل المفضي إلى جوهر الأشياء، حيث تتباين مظاهر العلاقة بين الألفاظ والمعاني بتباين الأنساق السياقيّة التي تتّخذها الألفاظ في صدد التعبير عن الدلالة واكتسابها ، فضلا عن تحقيق سمة التماسك والانسجام بين أجزاء النص، لأنّ السرّ في التضاد لا يقتصر على مفردات اللغة فحسب، وإنّما يتعدّاها إلى السّياق، ليترك أثرا بلاغيا وإيقاعيا وجماليا في النصوص؛ فالمبدع بإمكاناته الخاصة، قد يخلق تقابلات غير لغوية، في ارتباط بقدراته الإبداعية، ورؤيته الخاصة للعالم والأشياء،

---

3. المقابسات، أبو حيان التوحيدي، مكتبة مشكاة الإسلامية الإلكترونية، الموقع على الإنترنت : http://www.almeshkat.net/books، ص: 20 وما بعدها.

4 . الثنائيات الضدية . دراسات في الشعر العربي القديم، د. سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009، ص: 4.

1 . الروض المريع في صناعة البديع، ابن البناء المراكشي العددي، تح : رضوان بنشقرون، دار النشر المغربية، الرباط، ط1، 1405 هـ . 1985م، ص : 111.

فيحقق تقابلات سياقية أو أسلوبية أو ثقافية، متفهّما لطبيعتها وأهميّتها الخاصة في لغة الأدب والشعر[1]، وما ذاك إلا لتحقيق مقاصد سامية، وغايات جليلة، تنطوي على قيم جمالية، تثري المعنى، وتغني المحتوى، وتزيد المضمون قوّةً وبيانًا؛ وتمنح الأسلوب طاقة تعبيريّة ذات أثر عجيب في النفس، وهي بهذا تجمع بين الإمتاع والإقناع، فهي حين تربط بين المتناقضيْن، فإنها في الوقت نفسه تظهر المفارقة الشاسعة بينهما، لتكشف حقائق الأشياء، وتنبّه إليها، وتلقي بأثرها في النفس، وهو ما يؤكّد أنّ بنية التضاد ليس « زينة بديعية، يلهو بها الأديب، فيورد الكلمة وضدّها، والعبارة وأختها أو نقيضها، ليجعل كلامه برّاقا خلابا بديعا »[2]. لتحقيق غرض معيّن. وإنّما لها أهميتها الخاصة، وفرادتها المتميّزة ، نظرا لِما لها من سمات أسلوبيّة، تمثّل العمود الفقري لجمال الكلام، ولعلّ من أبرزها أنها تبعث على رسوخ الفكرة رسوخاً أعمق، وتوضح المعاني، وتبرزها في صورة جلية، وهي إلى جانب ذلك، تؤدي دورا آخر بالغ الأهميّة يتمثل في تلاحم أجزاء الجمل والعبارات، وترابطها وانسجامها، وقوّتها وتماسكها، ولا أدلّ على ذلك من قدرتها الفذّة على الجمع بين النقيضيْن، وهذا من أقوى العلل في استجلاب الفضيلة للكلام، من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) ﴾ (الحديد: 2، 3)، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) ﴾ (النجم: 43، 44)، وقوله أيضا: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ (الكهف: 18)، وكقوله: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة :82)، فقابل بين (الضحك) و(البكاء)، و(القليل) و(الكثير)، لأن الآية تتحدث عن المنافقين الذين قعدوا عن نُصْرة المؤمنين؛ فرحين بما فعلوه، وكان ينبغي القول: "فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حَتْمٌ واجب لا يكون غيره وعلى سبيل تبكيت أعمالهم وتوبيخ مقاصدهم. وكذلك قوله تعالى: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) [الحديد:23]، فقابل بين (اليأس) و(الفرح)، وبين (الفوات) و(الإيتاء). وأيّا كان شكل ذلك الجمع والتضاد، سواء بين الألفاظ المنطوقة، أو بين المعاني المقصودة، فهي أسلوب جمالي فريد، يُسهم في توضيح المعاني، ويُفصح عن دقيق المراد والغرض.

وعلى هذا، فإنّ القرآن الكريم في تقابلاته « يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية» [3]. ومن هنا كان لهذا النوع من التضاد بلاغاته وجمالياته، على اعتبار أنّ الضدّيّة الظاهرة بين طرفيه، تعدّ مظهرا بارزا أمام القارئ، وبلاغتها تكمن في المعنى الحقيقي المتخفّي وراء المتضادين، والتي يستطيع الدارس الحذق اكتشافها بقدراته الخاصة، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ(19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20)وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22) ﴾ (فاطر: 19،20،21، 22) ، حيث عقد سبحانه وتعالى في هذه الآيات مقارنة بين أضدادٍ لتوضيح

2 . لغة التضاد في شعر أمل دنقل، عاصم محمد أمين، دار صفاء، عمان ، الأردن، ط1، 2005، ص: 41.

1 . البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد علم البديع، بكري شيخ أمين، بيروت، ط2، 1991، ص: 64.

1 . التصوير الفني في القرآن :سيد قطب، دار المعارف، القاهرة،ط9 ، 1980، ص: 141.

الفرق الشاسع بينها، والحديث عنها يعني حديثا عن توازي الثنائيات، وسير طرفيها جنبا إلى جنب معا، ممثلة في : الأعمى وهو الكافر، والبصير أي المؤمن ، والظلمات وهي الكفر، والنور أي الإيمان ، والظل وهو الجنّة، والحرور أي النار.

ومِمّا سبيله هذا السبيل الحكمة ، والنكتة البديعة في الجمع بين العسر واليسر في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:5، 6). فكان من كرم الله - عز وجل - وعظيم لُطفِه، أن ذكر اليسر في هذه السورة مرّتين وكذا العسر! – فبيَّن أنّ كل عسر- وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له، فهو يقارنه ويصاحبه، فكلمة ﴿ مَعَ ﴾ هنا مستعملة في غير حقيقة معناها؛ لأن العسر واليسر نقيضانِ، فمقارنتهما معًا مستحيلة، فتعيَّن أن المعيَّة مستعارة لقرب حصول اليسر عقب حلول العسر، بقرينة استحالة المعنى الحقيقي للمعية. ونحوه قوله: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: 7)، فكُلُّ كَرْبٍ ينزِلُ بالمؤمنِ فإنَّ مَعَهَ فَرَجًا لا محالة، وكلُّ عُسرٍ يُصِيبُه فإنَّ مَعَهُ يُسرا، فإنّ الجامع بين المتضادين هنا مقصود، باعتباره سنةُ الله تعالى، ولله في ذلك ألطاف وحِكَمٌ لا يدركها خلقُه، فهو عليم بأحوالهم، خبير بمصالحهم، لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا كان خيرا له؛ إن أصابته سراءُ شكر، فكان خيرا له، وإن أصابه ضُرٌ صبر، فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، حيث يقول الله جل وعلا: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 216).

من الشواهد الدالة على روعة بنية التضاد في النظم الكريم :

إنّ الناظر في آيات الله ، يجد من الشواهد والروائع الدّالة على بنية التضاد ما بلغ الغاية في بلاغة التراكيب ودقّتها، وجمالياتها وإيحاءاتها، لذلك توجّه الاهتمامُ إلى دراستها، وكيفية تفرّدها في تشكيل المعنى في النصّ القرآني، وهو ما يقتضي التذوّق، وتنْبِيه الإحساس إلى أسرار الجمال الكامن في هذه الخاصّيّة الأسلوبيّة الفريدة، لاستجلاء إشعاعاتها الإبداعيّة المنبعثة من السياق، في توقيعٍ موسيقيٍ متناسقٍ بديع، ينساب في سياق بياني عجيب، فيعطي للمعنى عمقًا، وللأداء تصويرًا، وللتّعبير روعة، وللصّورة ثراءً، وللأسلوب بلاغة.

وفي إطار هذه الرّؤية، عمد البلاغيون ـ وهم يدرسون ظاهرة التضاد ـ إلى البحث عن الآيات القرآنيّة الممثلة للظاهرة، واستخرجوا مقابلاتها وأضدادها، وأبرزوا بعدها الجمالي والتحسيني في سياق هذه الآيات الكريمة، ورأوا فيها دليلا جديدا على إعجاز القرآن الكريم، وسموّ بلاغته، وتفرّده عن غيره من أساليب البشر، فأسلوب التضاد في القرآن الكريم، يختلف عن المعهود عند البلاغيين، إذ يشكّل بنية ضديّة كلية ممتدة بين المواقف المتعارضة، بين أصحاب الحق والباطل، والكفر والإيمان، والخير والشر، والحياة والموت، وصور النعيم في الجنة، وألوان العذاب في النار وغيرها، من ذلك قوله تعالى الذي لا يريد من نوع الإنسان وبقائه إلا حياة دينه، وظهور توحيده وعبادته، وهو ما يتجلى في الطباق التعادلي بين مفهوم الموت والحياة، كما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ(2) ﴾(الملك :1،2) .

وفي الآيات الأولى حتى العاشرة من سورة الشمس تأتي المطابقة بين المفاهيم : " (الشمس/ القمر)، (النهار / الليل)، (السماء / الأرض)، (فجور/ تقوى)" وهي تأكيد على أنّ الله تعالى خلق كلّ هذه الأمور

المتضادة المتدرّجة تحت التنائيات المتعادلة، في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) ﴾ (الشمس: 1. 10).

فلم تكن هذه الثنائيات الضدية بإيحاءاتها المتباينة مؤدّية إلى الرتابة والتكرار، خاصة فيما يتعلّق بالمقابلة الكونيّة، أو الزمانية (كالسموات والأرض، والليل والنهار)، والتقابل العقدي (كالإيمان والكفر، الحق والباطل، الهدى والضلال)، ذلك أنّ هذه الثنائيات، تظهر في كلّ آية قرآنية بشكل لافت ومختلف، وبفكر متجدّد، يفرضه اختلاف السياق، ويدعو إلى تثبيت المتضادين عقيدةً وفكرًا ووجدانًا.

ومن بديع المقابلات المتفردة والمتميزة بالجدة والطرافة، والتي تشكل أهم ميزة أسلوبية للنظم الكريم، ما أورده كمال عبد العزيز إبراهيم [1] من نماذج بديعة، نذكر منها :

أ ـ مقابلات داخل السورة الواحدة، وتأتي بصُوَر متعددة، منها صورة التقابل بين مطلع السورة وختامها، حيث يقول تعالى في مطلع سورة (المؤمنون) : ﴿ قَدْ أفلَحَ المُؤمِنُون﴾ (المؤمنون: 1)، ويقول في ختامها: ﴿ إنّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُون﴾ (المؤمنون: 117).

ومنها المقابلة العجيبة التى تتوسط السورة، وتشطرها شطرين متقابلين كما في سورة (الحجر). وتتمثّل في قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر: 49 .50)، وليس وجه العجب هنا هو المقابلة بين الآيتين، وإنما العجبُ والروعة في أنّ هذه المقابلة تتوسّط سورة الحجر، فتشطرها شطرين متقابلين .الشطر الأوّل من السورة تكثر فيه الآيات المعبرة عن غفران الله ورحمته بعباده ، والشطر الثاني المقابل، تكثر فيه الآيات المعبّرة عن العذاب الأليم.

ب ـ مقابلات بين مطلع السورتين فقط، كالمقابلة بين مطلع سورتيْ النساء والحج. ففي مطلع سورة النساء شرحٌ للمبدأ، أي بداية الحياة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(النساء:1)، ويقابل ذلك مطلع سورة الحج الذي يشتمل على شرح المعاد، ونهاية الحياة على الأرض، وبداية يوم القيامة، حيث يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1)، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2) ﴾(الحج:2.1)،

ج ـ مقابلات بين كل ما في السورتين، كما في سورتيْ الشمس والليل . وسورتيْ الماعون والكوثر؛ حيث زخر القران الكريم بشواهد كثيرة رائعة، فسورة الليل تتميز بكثرة المقابلات بين آياتها، التي جاءت فيها، وفي غيرها من الآيات بشكل متناسق فني بديع، حيث يقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13)... ﴾(الليل:13.1).

1 ـ ينظر: مقابلات متميزة في القرآن الكريم . دراسة بلاغية ، كمال عبد العزيز إبراهيم ، ، ص: 10.

وقد أجملت بنت الشاطئ هذا التقابل والتضاد، فذكرت أنّ في القَسَم بالليل حين يغشى الكون وما فيه ، يقابل النهار حين يتجلى، فيصبح كل ما في الأرض ظاهرا مكشوفا[1] ، « وهما آنان متقابلان في دورة الفلك ، ومتقابلان في الصورة . ومتقابلان في الخصائص . ومتقابلان في الآثار»[2].

واعتمادا على هذه الحقيقة يتضح أنّ التقابل العقدي كان المحور الأساس، والموضوع الأكثر أهمية بين موضوعات التضاد والمقابلة القرآنية، وإنما بلاغتها تكون في « وضع الحدّ الفاصل بين الكفر والشرك من ناحية، وبين الإيمان والحق والهدى من ناحية أخرى »[3].

وغرَضُه من ذلك إبانة كلّ طرف وتوضيحه، ثم التفريق بينه وبين الطرف الآخر[4]. والقرآن الكريم حين يجمع بين المتضادين، فإنّ الجامع بينهما مقصود، لأنه سبحانه وتعالى يبيّن حقيقة الكفر في الكافر، وحقيقة الإيمان في المؤمن، ذلك أنّ حكمته في الجمع ما بين الضدين التفريق بين الصالح والطالح، والثبوت على أحدهما، ومن ثمة خلق التشويق الذي يقود القارئ إلى ترجيح أحد الطرفين وتأييده، والانتصار له، على أساس أنّ الضد يعرف بضده[5].

ولن نستطرد في بسط ما قيل في ذلك، فحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق. حيث يمكن حصر وجوه التضاد بين سورتيْ الشمس والليل فيما يأتي:

الوجه الأول : التضاد بين اسمي السورتين (الشمس والليل).

الوجه الثاني : التقابل بين القسم فيها : فالقسم في الشمس ﴿والشمسِ و ضحاها ﴾ يقابله في الليل ﴿ والليلِ إذا يغشى ﴾ . وفي الشمس ﴿ والقمرِ إذا تلاها ﴾ يقابله في الليل ﴿ والنهارِ إذا تجلَّى ﴾.

الوجه الثالث : التقابل بين المقسم عليه في كل منهما.

فالذي طهر نفسه وزكاها من الداخل في الشمس (أعطى واتقى وصدق بالحسنى في الليل فيسَّرَ اللهُ له الأمور). أمّا الذي دسّاها وأخملها هناك فإنه (بخل واستغنى وكذب بالحسنى هنا، فضيق عليه).

إن المقسم عليه في سورة الشمس شيء لا تراه العيون ، خفيّ في نفس الإنسان، أما المقسم عليه في سورة الليل، فهو السعي الظاهر الملموس . وهذا هو وجه التقابل بين المقسم عليه في كلتا السورتين.

وفي سورة " الليل" نجد أن الإيقاع الداخلي يعتمد على ثنائية بديعة، متعاكسة ومتنافرة من بداية السورة إلى ختامها، ويظل الإيقاع محافظا على النسب المتوازنة في هذه الثنائية في نغماته، وتناسبه

---

1 . التفسير البياني للقرآن الكريم ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف ، مصر، ط3، ج2، ص: 103.

2 . في ظلال القرآن، سيد قطب،.،ج6، ص: 3926 .

3 . القرآن الكريم واستمرارية إعجازه، محمد علي أبو حمدة، المجلة الثقافية، العدد: 9، 1985م، ص: 1150.

4 . ينظر: السمات الجمالية في القرآن الكريم من وجهة نظر فنان تشكيلي، رسالة ماجيستير قدّمها : قيس إبراهيم مصطفى العيكلي، إشراف : محسن عبد الحميد أحمد، وأحمد فؤاد العزاوي، كلية الفنون الجميلة، جامعة بغداد، 1419هـ . 1998م، ص: 189.

5 . البديع تأصيل وتجديد، منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1976، ص: 118.

أيضا في كيفياته، ومعاودة هذا الإيقاع المتوازن وتكراره لإيضاح الحقيقة أو المعنى من خلال هذا الإيقاع المتوازن بين القطبين المتنافرين، فيبدأ مطلع السورة بالصورة البديعة القائمة على التضاد بين الليل والنهار، وما فيهما من لونين مختلفين: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ (الليل : 1، 2)، ثم يمتد هذا التضاد في الإيقاع إلى كل أجزاء السورة ومشاهدها، فينتقل التضاد من الصورة الكونية في الليل والنهار إلى الصورة الإنسانية في الذكر والأنثى، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (الليل: 3) ، ثم يمتد الإيقاع المتوازن المعتمد على التضاد إلى صورة الأفعال الإنسانية، فهناك صورة المنفق وصورة البخيل، وما يترتب على الصورتين من جزاء مختلف ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل : 5. 10) . وهذه الآيات عند البلاغيين من شواهد المقابلة، بينما يوردها صاحب التعريفات من شواهد المطابقة، « فالإعطاء والاتّقاء والتصديق، ضد المنع والاستغناء والتكذيب، والمجموع الأول شرط لليسرى، والثاني شرط للعسرى »[1]، وبهذا النحو من التفسير يقول السكاكي : « لما جعل التيسير مشتركا بين الإعطاء والاتّقاء والتّصديق، جعل ضدّه ، وهو التعسير مشتركا بين أضداد تلك، وهي المنع والاستغناء والتكذيب»[2]

ثم تمتد هذه الثنائية في الإيقاع إلى الآخرة والأولى،(وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ (الليل: 13)، وما بين الآخرة والأولى من اختلاف، ثم يبدأ تفصيل الاختلاف بين الآخرة والدنيا من حيث أفعال البشر، فهناك الأشقى والأتقى، ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا **الْأَشْقَى** ، الذي كذب وتولى ، وَسَيُجَنَّبُهَا **الْأَتْقَى** ، الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ (الليل: 14 . 18) ومن خلال هذه الثنائية في الإيقاع الداخلي، ترتسم صورة الإنسان واضحة المعالم بنموذجية الأشقى والأتقى، وتتضح الفوارق بينهما من خلال إدراك الفوارق بين الليل والنهار، أو الظلام والنور. فالثنائية الإيقاعية ملحوظة في الكون والإنسان والأفعال والجزاء.

ويمكن إرجاع هذه الثنائية الإيقاعية إلى "الليل والنهار" في مطلع السورة، أو اللونين المتنافرين الأسود والأبيض فيهما، اللذين تفرعا إلى أجزاء متنافرة أو أنغام مختلفة في السورة كلها. فكل لحن يرجع إلى مصدره في المطلع، فيتآلف معه ويمتد، ويتنافر مع اللحن الآخر ويبتعد. وتمتد هذه الأجزاء أو الإلحان في الزمان والمكان حتى تصل إلى اليوم الآخر، ويظل التنافر قائما بين هذه الثنائية الإيقاعية، وذلك لتحقيق التأثير الديني المبتغى من خلالها. وتختم هذه الثنائية الإيقاعية بـ"الأتقى "، لأنه النموذج الذي يراد إبرازه ليكون قدوة للاقتداء و الاحتذاء ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (الليل : 17 . 21)، وبذلك تبلغ الإيقاعية في أسلوب القرآن حدا معجزا للبشر أداءً وتناسقًا وتأثيراً.

الخلاصة والاستنتاج :

من خلال ما تقدم يمكننا أن نوجز أهم النتائج التي توصلنا إليها فيما يأتي:

1 . التعريفات، علي الجرجاني، تح : نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصدير، القاهرة، ط1، 2007، ص: 345.

2 . مفتاح العلوم، السكاكي، ص: 179.

1 ـ لقد عنيت هذه الدراسة بتشكيل رؤية شمولية للبنية الضدية ، وانعكاساتها الجمالية في الخطاب القرآني، وصياغة مفهوم عام يستوعب أنماطها وأسسها العامة من خلال استقراء البنية الموضوعية لأشكالها، والطبيعة اللغوية السياقية المشتركة لتجلياتها المختلفة ، وبالشكل الذي تقدمه بلاغة النظم الكريم، ما يجعلها جديرة بأن تدرس دراسة معمقة تستجلي مغزاها ، وتجمع كل معانيها الحقيقية والمجازية، لحصر دلالاتها حصرا علميا يجعل الوعي الإنساني بحدودها أدق، وفهمه لأسرارها وتفرعاتها وأهدافها وتنوعاتها أوضح وأبين.

2 ـ تُعَدُّ البنية الضدية من أهم الظواهر الفنية في الأسلوب القرآني ، وسمة خاصّة من سمات بدائع نظمه الكريم ، وخصيصة تحمل سرّا قرآنيّا عظيما، وملمحا أسلوبيا متفردا، فكانت ألطف وأدقّ اللمسات الفنّيّة المتوارية خلف بنيته اللغويّة، ونسيجه الفنّي المتفرّد الذي بلغ حدّ الإعجاز.

3 ـ إنّ الناظر في القرآن الكريم، يجد من الآيات والشواهد الدّالة على البنية الضدية ما بلغ الغاية في إعجاز التراكيب ودقّتها، وجمالياتها وإيحاءاتها ودلالاتها، وفي تنوعها وتشكيلاتها، وفي كمياتها وكيفياتها ودرجاتها، فكانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فاستأثرت باهتمام علماء البلاغة، فلقد وردت في القرآن الكريم جامعة بين متضادين في اللفظ والمعنى، والموقف والسياق، وهو ما يحتاج إلى دراسات متواصلة مؤصلة.

4 ـ للبنية الضدية أهميتها الخاصة، وفرادتها المتميّزة في المجال الإبداعي، لما لها من ذخيرة فنية رائعة تمثّل العمود الفقري لجمال الكلام، ولعلّ من أبرزها أنها تجلو الأفكار، وتوضح المعاني، وتبعث على رسوخ الفكرة؛ كما تؤدي دورا آخر بالغ الأهميّة يتمثل في تلاحم أجزاء الجمل والعبارات، وترابطها وانسجامها، وهذا من أقوى العلل في استجلاب الفضيلة للكلام، حيث تمتاز بقدرتها الفذّة على الجمع بين النقيضيْن. وهو ما يتجلّى في استعمال القرآن للطباق والمقابلة كمحسّنات معنوية، وحرصه الشديد على توظيف العبارات التناغمية التي تتعادل وحداتها في تناغم وإيقاع جميل، ومقصد جمالي، وسرّ دلالي، بل إنّ المتأمّل في دِلالاتها واستخداماتها يرى أنّ لها أغراضاً أبعد من ذلك، فهي فنّ بلاغيّ، وطريقة في أداء المعنى لها آثارها وقيَمها البعيدة، وبلاغتها الخاصّة، في تجسيد جماليات الخطاب القرآني في أحسن صورة، وأرقى بيان.